الدين عند إريك فروم

د. حسن حماد
أستاذ كرسي ليونسكو للفلسفة
رئيس قسم الفلسفة. جامعة الزقازيق

Abstract:

We cannot talk about Erik Fromm without mentioning Sigmund Freud, who is the spiritual father of the psychoanalysis school; Fromm himself declared it in all his works. For example, in his book «Man for himself,» Fromm asserts that Freud as a human thinker is no less important than any thinker of the Renaissance in the ability of man to continue in this struggle as long as he possesses the power of reason; this faith is manifested in the mind in Freud's thought of psychoanalysis. His psychological analysis is an attempt to uncover the truth of Human.

Key words: Erik Fromm, Sigmund Freud, psychoanalysis, psychology, behaviour, religion, science.

فروم وفرويد:

لا يمكن لنا أن نتحدث عن إريك فروم دون أن نذكر فرويد الذى يُعد الأب الروحى للمدرسة الفرويدية؛ وفروم نفسه يعتبر بذلك فى كل مؤلفاته وعلى سبيل المثال فى كتابه «الإنسان لنفسه » يؤكد فروم أن فرويد كمفكر إنسانى لا يقل أهمية عن أي مفكر من مفكري عصر النهضة، فهو يُبدي إيمانا حاراً بالحقيقة، كهدف على الإنسان أن يناضل من أجله، وهو يثق في قدرة الإنسان على الاستمرار في هذا النضال طالما يمتلك قوة العقل؛ ويتضح هذا الإيمان بالعقل في فكر فرويد عن التحليل النفسي، فالتحليل النفسى لديه هو محاولة للكشف عن حقيقة الإنسان. وبهذا فإن فرويد إنما يواصل تلك الجهود العظيمة التي قام بها «بوذا وسقراط... وغيرهم» والتي تقوم على الإيمان بالحق كقوة تساعد على التحرر وعلى أن يكون الإنسان فاضلاً.[1]

كذلك يشير فروم إلى أن فرويد هو أول من درس الدوافع اللاشعورية دراسة تجريبية وبتفصيل كبير، وهو بذلك يُعد أول من وضع أسس نظرية الدوافع اللاشعورية. ويعتبر هذا المفهوم ذا أهمية كبيرة ليس فحسب في مجال الدراسات السيكولوجية، ولكن أيضا في المجال الأخلاقي إذ لا يجب أن ننظر إلى كل ما هو لا شعوري في الذات الإنسانية على إنه شيء دنيء بل يمكن أن يكون سامياً أيضا.[2]

ويأخذ فروم على فرويد أنه لم يستطع أن يوظف بشكل جيد مفهومه عن الدوافع اللاشعورية

Scanned by CamScanner

خاصة في المشكلات الأخلاقية والإنسانية التي تتعلق بموقف الإنسان ومصيره، ومن ثم يرى فروم أن علم النفس يجب أن يتأسس على الفهم الإنثروبولوجي - الفلسفي للوجود الإنساني.[3]

وبرغم أن فرويد بدأ حياته طبيبا وانشغل بعلاج أشكال معينة من الأمراض إلا أنه توغل بعيدا فيما وراء الطب واتجه صوب الاهتمام بتحليل الأزمة الحضارية والروحية للإنسان، وقد قاده هذا الاهتمام إلى تخصيص عدد من أبحاثه لنقد وتحليل الظاهرة الدينية وسوف يكون مهماً لموضوع بحثنا أن نتوقف قليلاً عند موقف فرويد من الدين بوصفه مقدمة لا غنى عنها للولوج إلى رؤية فروم الفلسفية عن الدين.

لقد تصدى فرويد لدراسة المسألة الدينية في عدد من مؤلفاته التى كتبها في فترات متفرقة؛ ففي عام 1913 كتب «التوتم والتابو»، وفي عام 1927 كتب «مستقبل وهم»، وفي عام 1930 كتب «الحضارة ومنغصاتها» وفي عام 1937 كتب « موسى والتوحيد». وفي هذه المؤلفات وغيرها يرى فرويد أن مصدر الدين يكمن في عجز الإنسان عن مواجهة قوى الطبيعة الخارجية أو مواجهة القوى الغريزية بداخله. وقد نشأ الدين في مرحل مبكرة من تاريخ الإنسان عندما لم يكن بمستطاع الإنسان أن يوظف قواه العقلية في السيطرة على هذه القوى الخارجية والداخلية. فبدلا من أن يتعامل مع هذه القوى بعقله، تعامل معها بوسائل عاطفية أو وجدانية أخرى كان دورها كبت هذه القوى والسيطرة عليها.

وفي هذه العملية يُنمي الإنسان ما يسميه فرويد بالوهم. ويستمد هذا الوهم مادته من الخبرة الفردية الخاصة بالطفل، وحين يواجه الإنسان خطراً لا يمكن السيطرة عليه أو فهمه يمارس عملية نكوص إلى تجربته الأولى عندما كان طفلاً، حيث كان يشعر بالأب الذي يوفر له الحماية، الأب الذي يمتلك الحكمة الفائقة والقوة، والذي يمنح أبنائه الحب والحماية طالما يطيعونه ويتجنبون عصيانه.[4]

وعلى هذا النحو فإن الدين طبقا لفرويد هو تكرار لتجربة الطفولة، فالإنسان يتعامل مع القوى التي تهدده بنفس الأسلوب الذي كان يتبعه عندما كان طفلاً، إنه يواجه شعوره بعدم الأمان بالاعتماد على أب يعجب به ويخافه في وقت واحد.[5]

ولا يكتفي فرويد بقوله أن الدين وهم، بل يذهب إلى أبعد من ذلك حيث يرى أن الدين خطر لأنه يتحالف مع مؤسسات إنسانية قمعية مما يضفى على هذه المؤسسات مسوحاً من القداسة، فضلاً عن أن ما يقوم به الدين من ترسيخ للوهم وتحريم للتفكير النقدي يجعله مسؤولاً عما أصاب العقل البشري من تدهور وانحطاط.[6]

وبرغم أن فرويد يعترف بأن الدين قد يفلح فى حماية الإنسان من العصاب الفردي إلا أن الثمن الذي جنته الإنسانية من وراء الدين يبدو فادحاً في رأى فرويد، وهو يؤكد هذا المعنى في كتابه الحضارة ومنغصاتها بالقول: «إن الدين يفرض على الجميع وبصورة متكافئة أسلوبه الخاص لبلوغ

Scanned by CamScanner

السعادة وتجنب الألم. وتقوم تعاليمه على الحط من قيمة الحياة وتشويه صورة العالم الواقعي بطريقة مضللة. وهذا الأمر يستلزم إرهاب العقل، وبهذا الثمن ومن خلال قهر الدين لا تباعه، والعمل على إبقائهم أطفالاً وإدخالهم جميعا فى حالة من الوهم الجمعى ينجح الدين في حماية بعضهم من العصاب القهري، ولكن هذا أقصى ما يستطيعه الدين».[7]

ويرى إريك فروم أن فرويد هو امتداد لفكر التنوير لأن نقده للدين هو من جانب آخر دفاع عن تلك القيم المهددة بالضياع بفعل الدين، ونعنى بهذه القيم: قيم العقل والحرية والأخوة والصدق .. إلخ. ولهذا يدعونا فرويد إلى التخلي عن وهم الإله الأبوى، وأن نتغلب على هذا التثبيت الطفولي، وأن نواجه وحدتنا وعزلتنا مستندين فقط على قوانا الشخصية وقوة عقلنا. هنا فقط نستطيع أن ندرك عالمنا إدراكاً موضوعياً ودون وهم، ونكف عن أن نكون أطفالاً، ويكون لدينا الجرأة الكافية لنحرر أنفسنا من الخضوع للسلطة بكافة أشكالها.[8]

إن فرويد بالتأكيد أكثر راديكالية فيما يتصل بموضوع الدين من « إريك فروم « الذي حاول أن يتخذ موقفا وسطا أشبه بالموقف الذى اتخذه « كانط « حيال الدين، فهو يرفض الدين بصورته التقليدية المؤلهة، ويحاول أن يقدم لنا ديناً يسميه الدين الإنساني، والذي لا يفرق فيه بين المذاهب الفلسفية وبين الديانات الوضعية الإنسانية وبين الديانات الإبراهيمية أو الكتابية. وفي سبيل الوصول إلى هذا الهدف قام فروم بعملية مزدوجة، فهو من جانب حاول أن يفتش في أعماق التوراة ليستخرج لنا الأبعاد الإنسانية والتحررية في الدين اليهودي، ومن جانب آخر يضع شخصيات دينية مثل «بوذا وزرادشت وموسى» في سلة واحدة مع سقراط وسبينوزا ونيتشه وماركس وفرويد، ويزعم أن خيطا مشتركا يوحد بين هؤلاء جميعا، هذا الخيط يتمثل فيما يسميه برغبتهم في إنقاذ روح الإنسان وتأكيد إنسانيته وكرامته، ولنتابع فروم في هذه المغامرة التي تحمل قدراً كبيراً من التناقض مثلما تنطوي على جرأة وعلى طرافة فكرية لا يمكن لمنصف أن ينكرها. ولنبدأ من تحليل فروم لطبيعة الوجود الإنساني، لأن فروم شأنه شأن فرويد يعد بصورة أو بأخرى فيلسوفاً نسقيا، وبالتالي لا يمكن الفصل بين موقفه الأنثروبولوجي الفلسفي وبين فلسفته الدينية.

أولاً: الطابع التناقضي للوجود الإنساني:

يرى فروم أن هناك حالة من الوجود الحيوانى قد سبقت الوجود الإنساني، وقد تميزت هذه الحالة بالخضوع التام لقوانين الطبيعة البيولوجية، فلم يكن الحيوان يمتلك الوعى بذاته، الوعي الذي يساعده على تجاوز الطبيعة، ولم يكن يمتلك العقل الذي يساعده على التحرر من سيطرة الغريزة. ولكن عندما بلغ الحيوان حداً من التطور جعله يتحرر من الخضوع لقوانين الطبيعية، ويتجاوزها، وعندما لم تعد أفعاله وتصرفاته خاضعة خضوعا تاما لغرائزه ولد كائن جديدا أسمه الإنسان.[9]

ولم يقتصر دور هذه الملكات في رأي فروم على انفصال الإنسان عن الطبيعة، بل أنها جعلت من وجود الإنسان ظاهرة فريدة في نوعها: «فهو جزء من الطبيعة خاضع لقوانينها، ولا يستطيع

Scanned by CamScanner

منها فراراً، ومع ذلك فهو يعلو باقي الطبيعة. والإنسان نوع بمفرده على الرغم من أنه جزء من هذه الطبيعة، إنه بلا مأوى، ومع ذلك فهو مقيد بمأوى يقاسمه فيه بقية الكائنات، قذف به في زمان ومكان عرضيين بالصدفة، وهو مجبر على الخروج منه بالصدفة أيضاً. ولأنه على وعي بذاته فإنه يتحقق من عجزه وخوائه ومحدودية وجوده، ويتمثل نهايته ألا وهي الموت. إنه لا يستطيع أن يتحرر أبدا من انقسامية Dichotomy وجوده، ولا يستطيع أن يتخلص حتى من عقله إذا أراد، ولا يستطيع أن يتحرر من جسده أيضا. فطالما أنه يحيا فإن جسده يدفعه للحياة".[10]

إن هذه الفرضية السابقة تتكرر في معظم مؤلفات فروم، وهي تشكل الفكرة المفتاح بالنسبة لنسقه الفكري، ولهذا فإن تطور الفكر الديني يترافق مع هذه المسيرة المتطورة للوعي الإنساني. ففي كتابه عن «فن الحب « يتعرض لنفس القضية؛ إذ يذكر أن الإنسان الذي انفصل عن الطبيعة الأم وتحرر من قيود الدم والمنبت لا يزال يحن إلى العودة إلى هذه الروابط الأولية. إنه يشعر بأمانه في الارتداد إلى هذه الروابط الأولى. إنه لا يزال يشعر أنه متحد مع عالم الحيوانات والأشجار والأنهار والأرض، ويحاول أن يعثر على الوحدة أو الاتحاد بأن يبقى غير منقسم عن العالم الطبيعي. والأديان البدائية خير شاهد على هذه المرحلة من الحنين والتطور. فالحيوان يتحول إلى توتم أو معبود، يرتدي الإنسان أقنعة على شكل حيوانات سواء في الاحتفالات الدينية أو الحرب، الإنسان يعبد حيوانا على أنه إله وفي مرحلة تالية من التطور عندما تكون المهارة الإنسانية قد تطورت إلى مستوى الحرفية والفنية، عندها لا يكون معتمدا بأية حال من الأحوال على هبات الطبيعة (الثمرة التي يقطفها، والحيوان الذي يصطاده) في هذه المرحلة يحول الإنسان نتاج يده إلى إله، وهذه هي مرحلة عبادة الأوثان المصنوعة من الطين أو الفضة أو الذهب. إن الإنسان هنا يقذف ذاته بقواه ومهاراته في الأشياء التي يصنعها. وهكذا وبطريقة مغتربة يعبد براعته، يعبد ممتلكاته. وفي مرحلة تالية يعطي الإنسان آلهته شكل البشر. ويبدو أن هذا لا يمكن أن يحدث إلا عندما يصبح الإنسان أكثر وعيا بذاته وعندما يكتشف أن الإنسان هو أسمى وأكرم كائن في الوجود. في هذه المرحلة من عبادة إله مصطبغ بالصبغة الإنسانية نجد تطوراً يمضى في اتجاهين: تطور يشير إلى الطبيعة الأنثوية والذكرية للآلهة، وتطور يشير إلى درجة النضج التي حققها الإنسان والتي تحدد طبيعة آلهته وطبيعة علاقته بها.[11]

ثانياً: الموقف الديني لإريك فروم:

تُرى ما هو الموقف الديني لـ فروم، ذلك المفكر اليهودي الذي عانى مثل غيره من مفكري مدرسة فرانكفورت من اضطهاد النازي وتبنى فلسفة اشتراكية إنسانية وظل طيلة حياته يدافع عن الحرية وحق الإنسان في الاستقلال وأن يكون نفسه؟

بداية فإن فروم يقدم لنا نفسه بوصفه مفكراً علمانيا لا يؤمن بالله وليس لديه أية قناعات في أن الكتاب المقدس هو كلام الله، ومع ذلك فإنه يصف هذا الكتاب بأنه يعبر عن رؤية عبقرية للعالم، رؤية ما تزال صالحة وتنتظر التحقيق. ويصف فروم هذا الموقف بقوله: «إنني لا أنظر إلى

Scanned by CamScanner

العهد القديم على أنه كلمة الله، ليس فقط لأن التقصي التاريخي يبين انه كتب من خلال أناس مختلفين، عاشوا في أزمنه مختلفة، ولكن أيضا لأني لست مؤمنا بالله. ومع ذلك فهو بالنسبة لي كتاب خارق للعادة يعبر عن الكثير من المعايير والمبادئ التي حافظت على صلاحيتها عبر آلاف السنين. إنه كتاب يكشف عن رؤية رجال، وهي رؤية ما تزال صالحة وتنتظر التحقيق. إنه لم يكتب من خلال رجل واحد، ولم يمليه الرب. إنه يعبر عن عبقرية أناس ناضلوا من أجل الحياة والحرية عبر أجيال متعددة».[12]

وعندما يقارن فروم نفسه ببعض المعلمين والحاخامات الذين درس من خلالهم العهد القديم والتلمود من أمثال «لودفيج كراوس» Ludwing Krouse "ونحميا نوبل" Nehemia Nobel، "وسالمان بي رابينكو" Salman, B. Rabinkow يعترف بأنه أقل منهم معرفة بالدراسات اللاهوتية، وإنه يختلف عنهم في أنه لا يؤمن باليهودية ولا يمارسها. يقول فروم: "ولكوني لست ممارسا لليهودية ولا أؤمن بها، فإنني في وضع مختلف وأقل منهم، وهذا ما حدا بي لأن أتجرأ لتحمل مسؤولية الآراء التي جاءت بهذا الكتاب، ومع ذلك فإن أفكاري نبعت من تعاليمهم".[13]

ويصف فروم موقفه الديني بتعبير شديد التناقض والغرابة، إذ يسميه نوعا من «التصوف الإلحادي» Monotheistic Mysticism[14].

ويتضح هذا التناقض بصورة أكبر عندما يتحدث فروم عن اليهودية بنوع من الإجلال والتقديس الذي لا يقل شأناً بأية حال من الأحوال عن لغة أحد المتدينين التقليديين، ويبدو أننا سنضطر إلى تطبيق أدبيات التحليل النفسي على شخصية فروم نفسه، فهو على مستوى الشعوري يبدو علمانياً ملحداً ولكنه على مستوى اللاشعور يكشف عن يهوديته المستترة، وتعالوا معي ننصت إلى لا شعور فروم وهو يتحدث عن التوراة، فيقول:

«نحن نعرف بالطبع أن الكتاب المقدس العبري يعد واحداً من المصادر الرئيسية الملهمة ليس فقط لليهودية. بل وأيضا للمسيحية والإسلام، وبالتالي فقد أثرت تعاليمه بعمق على التطور الثقافي لأروبا وأمريكا والشرق الأدنى. ومع ذلك فإنه لا يمثل اليوم بالنسبة لليهود والمسيحيين سوى صوت محترم للماضي. ويُقرأ العهد القديم بين معظم المسيحيين بصورة ضيقة وبالمقارنة مع العهد الجديد، فضلاً عن أن الكثير مما يُقرأ يُشوه بطريقة متعمدة. وفي غالب الأمر يُعتقد أن العهد القديم يعبر حصريا عن مبادئ العدالة والانتقام، وعلى النقيض يمثل العهد الجديد مبادئ الحب والرحمة».[15]

ويقول أيضا:

«... العهد القديم كتاب ثوري موضوعه تحرير الإنسان من الروابط الأولية الخاصة بالدم والأرض، ومن الخضوع للأصنام، ومن العبودية ومن الطغاة.[16]

على أية حال فإن فروم في كتابه «سوف تكونوا آلهة «يصف منهجه بأنه «ذو نزعة إنسانية

Scanned by CamScanner

راديكالية «، وهو يشرح هذه النزعة بقوله:

«إن تفسير الكتاب المقدس المقدم في هذا الكتاب ذو نزعة إنسانية راديكالية، وتشير الإنسانية الراديكالية هنا إلى فلسفة كونية تؤكد وحدة الجنس البشري وقدرة الإنسان على تطوير قدراته وبلوغ حالة من التناغم الداخلي وإقامة عالم يسوده السلام. وتعني الراديكالية الإنسانية أن هدف الإنسان هو الاستقلال التام ... إنها تتضمن أيضا موقفا متشككا نحو استخدام العنف، لأن العنف كان خلال التاريخ الإنساني وما يزال هو الذي يخلق الخوف، ذلك الخوف الذي جعل الإنسان مستعدا لان يحول الخيال إلى واقع والوهم إلى حقيقة. إن هذا العنف هو الذي جعل الإنسان عاجزاً عن الاستقلال، ومن ثم فقد أدى إلى تشويه فكره ومشاعره».[17]

وعلى طريقته المفضلة في المزج بين المتناقضات الفكرية يذهب فروم إلى أن بذور هذه النزعة الإنسانية الراديكالية الكامنة في المصادر القديمة للعهد القديم، قد تم الكشف عنها عبر تعرفنا على الراديكالية الإنسانية التى كانت لدى عاموس Amos وسقراط ولدى أصحاب النزعة الإنسانية في عصري النهضة والتنوير عند كانط وهيردر وليسنج وجوته وماركس وشفايتزر.[18]

ثالثا: الدين التسلطي والدين الإنساني:

يرفض فروم تلك الوصاية التي تمارسها الديانات التوحيدية الإبراهيمية على الديانات الأخرى بوصفها معيارا أو إطاراً مرجعيا نُقيم ونفهم من خلاله الديانات الأخرى كالبوذية والطاوية والكونفوشيوسية، التي تبدو لا دينية من وجهة نظر الديانات المؤلهة، مع أنها تستحق هذا الاسم على الأقل من الناحية النفسية.

ويقدم لنا فروم تعريفا محددا للدين كما يفهمه ويمارسه: «أنا أفهم الدين بأنه أي نظام للفكر والعمل تشترك فيه جماعة معينة ويمنح أفراده إطاراً للتوجيه وموضوعا للعبادة».[19]

ولأن الحاجة إلى نظام للتوجيه والعبادة يعد جزءاً أساسياً من بنية الوجود الإنساني، لذلك يمكننا أن نفهم مدى قوة وأهمية هذه الحاجة بالنسبة للإنسان. ويرى فروم إنه لا يوجد مصدر للطاقة داخل الإنسان أقوى من هذا المصدر، فالإنسان ليس حراً في أن يختار أن تكون له قيم عليا أو لا تكون، لكنه حر في الاختيار بين أنواع مختلفة من المثل، بين أن يكرس جهده لعبادة القوة والتدمير، أو ينمي طاقات العقل ومشاعر الحب «إن المسألة ليست ديناً أو لا دين بل أي نوع من الدين. هل هذا الدين من النوع الذي يدعم تطور الإنسان ويكشف عن قواه الإنسانية الخاصة، أم أنه من النوع التي يصيب تلك القوى بالشلل».[20]

ويفرق فروم بين نوعين من الديانات: الدين التسلطي، والدين الإنساني.

الدين التسلطي:

في هذا النوع من الدين يستسلم الإنسان لقوة أعلى من الإنسان. هنا تصبح الفضيلة الأساسية

Scanned by CamScanner

في هذا الشكل من الدين هي الطاعة، والخطيئة الكبرى هي العصيان. وفي هذه الديانة يُصور المعبود deity على انه شامل القدرة أو الإرادة، بينما يُصور الإنسان في حالة من العجز والتفاهة، ولا يشعر بالقوة إلا بمعونة وفضل المعبود ومن خلال الإذعان المطلق له. ويعتبر الخضوع لسلطة مطلقة هو أحد الأساليب التي من خلالها يهرب الإنسان من إحساسه المرعب بالوحدة والمحدودية. ففي فعل الإذعان أو الخضوع يفقد الإنسان استقلاله وتكامله بوصفه فرداً، ولكنه في مقابل ذلك يكتسب الشعور بأن هناك قوة رهيبة تحميه ويصبح جزءاً منها.[21]

أما الدين الإنساني:

فهو على العكس تماما من الدين التسلطى أو القمعي إذ أن «هدف الإنسان في الدين الإنساني هو أن يحقق أكبر قدر من القوة وليس أكبر قدر من العجز. الفضيلة هنا هي تحقيق الذات لا الطاعة. والإيمان هو يقين الاقتناع القائم على خبرة الفرد في مجال الفكر والمشاعر، وليس على التسليم بافتراضات تعتمد على الثقة فيمن يقدمها. والحالة المزاجية لهذا الدين هي الفرح، في حين أن المزاج السائد لدى الديانات التسلطية هو الشعور بالمحنة Sorrow والذنب".[22]

ويذكر فروم عدداً من الأمثلة التي توضح ما يقصده بالديانات الإنسانية منها: البوذية المبكرة ، الطاوية، تعاليم يسوع وسقراط واسبينوزا، بعض الاتجاهات في الديانتين اليهودية والمسيحية، خاصة التصوف، ديانة العقل الخاصة بالثورة الفرنسية. إن التمييز بين الدين التسلطي والدين الإنسانى يتقاطع مع التمييز بين الديانات المؤلهة وغير المؤلهة كما يتقاطع بالمثل مع التمييز بين الأديان بالمعنى التقليدى الضيق وبين المذاهب الفلسفية ذات الطابع الدينى . إن ما يعنينا من هذه المذاهب جميعا ليس مضمونها الفكرى ، بل الموقف الإنساني الذي يكمن خلف معتقداتها[23].

ولعل هذه النقطة الأخيرة تذكرنا على الفور بتلك التفرقة التى أقامها هيجل بين - ما أطلق عليه - الدين الوضعي، والدين الذاتي. الدين الوضعى يمثل كل ما هو مفروض على الإنسان من سلطة خارجية ويتعارض مع الحرية والعقل، أما الدين الذاتي فهو الدين الإنساني الذي لا يتعارض مع الحرية أو الاعتراف بقدرة العقل، بمعنى آخر الدين الوضعى يؤدي إلى اغتراب الإنسان واستلاب ذاته، والدين الذاتي يؤكد حريته ويساعد على تكامل ذاته.[24]

ولا شك في أن صورة الإله في كل من الديانتين الإنسانية والتسلطية سوف تختلف وتتمايز «فعلى حين يكون الإله في الديانة الإنسانية هو لذات الإنسان العليا ورمزا على ما يحتمل أن يكونه الإنسان أو ما ينبغى أن يكونه، نجد أن الإله في الديانات التسلطية يصبح هو المحتكر لما كان يملكه الإنسان أصلاً: عقله وحبه. وكلما أصبح الله أكثر كمالا كلما أصبح الإنسان أكثر نقصاً، إنه يسقط أروع ما يملك على الإله وبالتالي يفقر ذاته. الآن يمتلك الله كل الحب، كل الحكمة، كل العدل. أما الإنسان فإنه يفتقر لهذه الصفات، إنه خاوي وفقير».[25]

Scanned by CamScanner

وإذ يسقط الإنسان أجمل وأغلى صفاته الخاصة على الإله تصبح هذه الصفات منفصلة عنه، وفي هذه العملية يصبح مغتربا عن ذاته ، فكل ما كان يملكه أصبح الآن ملكا للإله، ولم يعد أمامه من وسيلة يقترب بها من نفسه سوى التقرب إلى الله. فمن خلال عبادته للإله يحاول جاهداً أن يتصل بذلك الجزء المغترب من ذاته والذي فقده أثناء عملية الإسقاط، وها هو الآن يتوسل إلى الله كي يعيد إليه بعضاً مما فقده، بعضاً مما كان يملكه من تلك الكنوز الضائعة.[26]

إن فروم هنا يستدعى «فيورباخ» بقوة بل إننا في الفقرات السابقة نكاد نشعر بأنفاس فيورباخ تتردد بين كلمات وعبارات إريك فروم. لقد عبر فبورياخ في كتابه «جوهر المسيحية « عن هذا المعنى، إذ يبين أنه كلما شعر الإنسان بالضعف والنقص والتفاهة، ازدادت قوة وجبروت الإله بوصفه ماهية الإنسان الحقيقية التي اغتربت عنه وتحولت إلى قوة متعالية ومفارقة تسكن عالم السماء. وفي هذا السياق يقول فيورباخ:

« إن الدين أو على الأقل الديانة المسيحية هي علاقة الإنسان بنفسه.. ولكنها علاقة يتم إدراكها كطبيعة مستقلة عن ذاته.. الكائن المقدس ليس شيئا آخر سوى الوجود الإنساني أو بالأحرى الطبيعة الإنسانية بعد أن تم تنقيتها وتحريرها من محدودية الإنسان الفردي، وجعلها موضوعية .. ومن ثم فإن كل الصفات التي تنسبها للطبيعة المقدسة هي صفات الكائن الإنساني».[27]

« إن الدين هو حلم، تبدو فيه تصوراتنا ومشاعرنا وكأنها وجود مستقل، كائنات خارج ذاتنا، فالعقل الديني لا يميز بين الذاتي وبين الموضوعي».[28]

رابعا: الله بوصفه تجربة إنسانية:

لم يحاول فروم أن يشغل نفسه بتقديم عدد من الصفات التي تميز ماهية الإله على النحو الذي كان يحلو لفلاسفة الأديان القيام به. وبدلا من أن يضيع وقته في هذا الجهد العبثى يتجه بصورة مباشرة إلى تحليل تجربة أو خبرة الإيمان لدى الإنسان، فهو يرى أن مفهوم الله هو تعبير تاريخي مشروط بالخبرة الإنسانية، أو كما يقول:

« إنني أعتقد أن مفهوم الله هو تعبير تاريخي مشروط بخبرة داخلية ما».

« إن الكلمات والمفاهيم التي تشير إلى الظواهر المتصلة بالخبرة النفسية أو العقلية تنمو وتتطور- أو تتدهور- لدى الشخص طبقا للخبرة التي تشير إليها أنها تتغير مثلما يتغير؛ إن لها حياتها مثلما له حياة».[29]

فإذا قال طفل عمره 6 سنوات لأمه: «أني أحُبك «، فإنه يعكس في عبارته تلك خبرة الحب التي تنتمي لسن السادسة من العمر. أما إذا كبر هذا الطفل وصار رجلاً وقال لامرأة: «أني أحُبك» فإنه بلا شك يتحدث عن معنى آخر تماماً ويعايش خبرة مختلفة، إنه يتحدث عن معنى آخر أكثر بعداً وأشد عمقا. وبرغم أن العاطفة هنا واحدة والنواة مشتركة، إلا أن الخبرة التي تشير إليها كلمة حب

Scanned by CamScanner

مختلفة في الطفل والرجل تماماً مثلما تختلف بين رجل وآخر.[30]

وينبهنا فروم إلى أن التعبير النظري عن الخبرة الإنسانية لفكرة الإله يجعلها عرضة للانزلاق إلى الأيديولوجيا. وهذا يعود إلى طبيعة العلاقة بين الخبرة والمفهوم، إذ أنهما غالباً لا يتطابقان بسبب أن المفهوم يعجز عن التعبير بشكل مناسب عن الخبرة التي يشير إليها، فالأصبع الذي يشير إلى القمر- كما يذهب «بوذى الزن» - يشير إلى تصور ما عن القمر، لكنه لا يشير إلى القمر ذاته، فهو مجرد إشارة ليس إلا. فقد يشير أحد الأشخاص إلى خبرته عن الله بالمفهوم ×، وقد يستخدم مجموعة أشخاص المفهوم أو الرمز × للدلالة على خبرة مشتركة يتشاركون فيها. وفي هذه الحالة وغيرها من الحالات لن يكون المفهوم أو الرمز سوى تعبير تقريبي عن هذه الخبرة. ويرجع ذلك إلى أن خبرة الشخص الواحد لا يمكن أن تتطابق مع خبرة شخص آخر. حتى خبرة الشخص الواحد تختلف من موقف إلى آخر، لأنه لا يمكن لأي إنسان أن يكون نفس الشخص في لحظتين مختلفتين من حياته. ومع ذلك فإن للمفهوم أو الرمز ميزة عظيمة إذ إنه يسمح للناس أن يحققوا ضربا من التواصل عبر خبراتهم تلك، غير أن خطورته تكمن في إمكانية الاستخدام المغترب لهذه المفاهيم أو الرموز.[31]

والاستخدام المغترب للمفاهيم هو الذي يحيلها إلى نوع من الأيديولوجيا، ويفسر فروم «الاغتراب الأيديولوجي» من خلال تلك النزعة الكامنة في الوجود الإنساني، والتي تسعى نحو النسقية والتمامية أو الكمالية. وأحد جذور هذه النزعة تتجلى في الرغبة في بلوغ اليقين. فعندما نعرف بعض الحقائق عن الواقع نسعى لاستكمالها بحيث يبدو لها معنى. ونظراً للطبيعة المحدودة للإنسان، ولأن معارفنا غير كاملة، لذلك نميل إلى اصطناع بعض الإضافات التي من شأنها أن تجعل تلك المعارف المتشظية تبدو وكأنها كلا متكاملا. وفي معظم الأحيان نفقد الوعى بالفرق بين تلك الشظايا والإضافات، وذلك بسبب رغبتنا الجامحة في امتلاك اليقين.[32]

وفي كتابه: «أما الملكية أو الكينونة « To Have Or To Be يكشف لنا فروم وهم امتلاك الإنسان لأي حقيقة كاملة. فالإيمان في إطار التملك هو أن يملك الشخص إجابات جاهزة عن الأسئلة المطروحة دون أن يكون لديه دليل عقلان عليها. ويقوم هذا النوع من الإيمان على الإذعان أو التسليم بالأفكار أو المعتقدات القديمة أو السائدة التي تنتمى إلى جماعة بشرية معينة أو إلى ديانة من الديانات. وهذا النوع من الإيمان يريح الفرد من أشق مهمة، وهي مهمة التفكير واتخاذ القرار. وبهذا الإيمان "... يصبح الشخص واحداً من المالكين السعداء للعقيدة الصحيحة. الإيمان في أسلوب التملك يمنح اليقين، ويّدعي الوصول إلى المعرفة النهائية الراسخة، المعرفة المسلم بصحتها لأن قوة من يدعو إليها ويصونها قوة قادرة لا تتزعزع. وما أيسر أن يختار الإنسان اليقين إذا كان المطلوب منه أن يتنازل عن استقلاليته".[33]

إن إريك فروم هنا يقدم توصيفا دقيقا لأزمة الفكر الديني الأصولي أو السلفي. خاصة الإسلام. الذي يستند في زعمه امتلاك الحقيقة أما إلى النص المقدس أو إجماع الفقهاء. ومن خلال هذه الآلية

Scanned by CamScanner

يتم إقصاء العقل، وقمع أى رغبة في الاستقلال، أو الاختلاف، أو النقد. ومن شأن هذا النوع من التفكير الدوجمائي، أو اليقيني أن يؤدي إلى التفكير، ومن ثم إلى العنف المقدس، العنف الذي يمارس باسم الدين أو الإله.

وينطوي التفكير الدوجمائي على مفارقة هي أن أي دوجما من حيث هي مطلق تعتبر الدوجمات الأخرى نسبية. وتعتبر نفسها الدوجما الوحيدة المطلقة، ومعنى ذلك أن الدوجمائى لا يقبل التعددية ولا يعترف بالبدائل. ولكن استحالة البدائل المطلقة لن يعنى نفي المطلقات، ولكنه يعني بالأساس عدم قدرتها على العيش معاً. وهنا تجئ المفارقة الثانية، ومن شأن هذه المفارقة أن تفضى إلى إشعال الحروب بين المطلقات، ومن ثم تدخل الحرب في علاقة عضوية مع المطلق، أي القتل باسم المطلق، والقتل في هذه الحالة يصبح مقدساً من حيث هو ثمرة المطلق. وهنا يبدو التلازم واضحاً بين العنف والمقدس، وهو تلازم يذكرنا بعبارة «هيرقليطس» بأن الإله «ديونيسيوس» واهب البشر الغبطة والسعادة والموحى بالموسيقى والأغاني، وهو أيضا الإله «هاديس» (حاكم العالم السفلي والأشرار. وهو تلازم يذكرنا أيضا باللفظ اللاتيني Sacred والذي يعني المقدس والملعون في آن واحد.[34]

ونعود إلى إريك فروم والذى يطرح سؤالا مرعبا، ولكن الإجابة التي يقدمها لم تكن بحجم خطورة السؤال. سؤال فروم هو:

متى أصبح الإنسان منافساً للإله؟

إن الإجابة المتوقعة وفق مقدمات فروم السابقة وبعيدا عن يهوديته الكامنة يجب أن تستند إلى التراث الإنساني العظيم لعصري النهضة والتنوير، وإلى اللحظة التاريخية الفارقة التي استطاع فيها الإنسان أن يتحرر من الخضوع للسلطات الدينية الظلامية في العصور الوسطى، وأن يشق طريقه نحو المستقبل مستنداً إلى عقله وإرادته وإيمانه بذاته.

إن الإجابة التي يقدمها فروم - للأسف- تتخذ مرة أخرى منحى لاهوتيا، إذ يعيد فكرة لا يمل من تكرارها وترديدها في العديد من مؤلفاته، وهي فكرة مستوحاة من التوراة، إذ يذكر أن لحظة التمرد على الإله هي لحظة الميلاد الحقيقي للإنسان. فمنذ أن تجرأ الإنسان وأكل من الشجرة المحرمة، شجرة المعرفة أصبح واعيا بإنسانيته وممتلكا للمعرفة. وكان يمكن أن يحقق الخلود لو استطاع أن يأكل من شجرة الحياة لولا أن طرده الرب من جنته ليهبط الأرض كي يسكنها ويعمرها. وفي هذا المعنى يقول فروم: «في هذه المرحلة الأولى من هذا التطور يبدو الله بمثابة الحاكم المطلق، فهو الذي خلق الطبيعة والإنسان، وإذا لم يرض عنهما فبوسعه تدمير كل ما خلقه. ومع ذلك فإن هذه السلطة المطلقة لله يقابلها الإنسان بوصفه المتحدى المحتمل لله. فالإنسان يستطيع أن يكون إلها إن استطاع، فقط أن يأكل من شجرة المعرفة وشجرة الحياة، ثمرة شجرة المعرفة تمنح الإنسان حكمة الإله، وثمرة شجرة الحياة تمنحه خلود الإله. وبغواية من الحية أكل آدم وحواء من شجرة المعرفة. وبذلك فقد أخذا الخطوة الأولى من الخطوتين.. وتحدى الإنسان السلطة العليا لله وأصبح

Scanned by CamScanner

قادراً على التحدي لأنه من المحتمل أن يصبح إلها، وأصبح التمرد هو أول فعل للإنسان .. ولأن الله يريد أن يحافظ على تفوقه من خلال فعل القوة، لذلك فقد طرد آدم وحواء من جنة عدن وبذلك أحال بينهما وبين اتخاذ الخطوة الثانية التي تجعل منهما إلهين إذا أكلا من شجرة الحياة ... وبعد أن طرد الإنسان من جنة عدن بدأ حياته المستقلة. وبذلك أصبح أول فعل للتمرد أو العصيان هو بداية التاريخ البشري، بداية الحرية الإنسانية.»[35]

ويستشهد فروم في تأكيد فكرته السابقة بآيات من النص التوراتي ـ مثلما يفعل الأصوليون ـ ويقتبس هذا النص:

« وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد عارفاً الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها».[36] الإصحاح الثالث 22، 23

وكعادته في خلط الأوراق لا يميز فروم تمييزا دقيقا بين التفسير الدينى لعملية ميلاد الإنسان والتفسير الأنثروبولوجي، فمرة يحدثنا عن انفصال الإنسان عن الطبيعة، ومرة يحدثنا عن انفصاله عن العالم المقدس (الجنة)، وتارة أخرى يمزج بينهما، فعندما يتحدث عن النتائج التي نجمت عن ميلاد الإنسان يقول: « لقد أضاع الإنسان الفردوس، وفقد الاتحاد مع الطبيعة، وأصبح المتجول الأبدي (أوديسيوس، أوديب، إبراهيم، فاوست) وهو مرغم على قهر هذا الانقسام الداخلي يعذبه الشوق إلى المطلق، إلى خلق نوع آخر من التناغم يستطيع من خلاله أن يرفع اللعنة التي فصلته عن الطبيعة وعن رفاقه وعن ذاته».[37]

مرة أخرى تلاحظ في النص السابق، أن فروم يبدأ بأن الإنسان «أضاع الفردوس» وهي فكرة دينية، و «فقد الاتحاد بالطبيعة» وهي فكرة علمانية» وأصبح المتجول الأبدي». وهنا يضع فروم النبي إبراهيم جنبا إلى جنب مع أويسيوس وأوديب وفاوست !.

إن فروم المغرم بالجمع بين المتناقضات والمفتون بالمفارقات لا يكترث كثيرا بالفروق التاريخية والمذهبية والفكرية بين الأنبياء والفلاسفة، أو حتى بين الشخصيات الأسطورية والشخصيات الحقيقية. لنستمع إليه وهو يتحدث عن الإيمان الحقيقي. من وجهة نظره. أو الإيمان المستند إلى مبدأ الكينونة وليس مبدأ الملكية.

يقول فروم في نص يجمع في بوتقة واحدة كل المذاهب الفلسفية العلمانية والدينية:

« يمكن أن نزداد فهما لنوعية المعرفة فى أسلوب الكينونة بالتعمق في تأملات مفكرين من أمثال بوذا والمعلم إيكهارت، وسيجموند فرويد، وكارل ماركس. ففي رأي هؤلاء المفكرين تبدأ المعرفة بالوعي بمدى خديعة مداركنا وحواسنا إيانا، بمعنى أن الصورة التي لدينا عن الحقيقة المادية لا تتفق تماما مع الحقيقة الحقيقية. ذلك أن أغلبية الناس أنصاف أيقاظ- أنصاف حالمين، وأنهم على

Scanned by CamScanner

غير وعي بأن ما يرونه حقيقة وأموراً واضحة لا تحتاج لإثبات ليست إلا أوهاما من صنع إيحاءات البنية الاجتماعية التي يعيشون فيها. وتبدأ المعرفة إذن بتبديد الوهم ... يدعو بوذا، ومن صفاته أنه الكائن الذى استيقظ، يدعو الناس إلى أن يستيقظوا ويحرروا أنفسهم من وهم أن اشتهاء الأشياء يؤدى إلى السعادة. ودعا أنبياء اليهود الناس إلى أن يستيقظوا أو يعرفوا أن معبوداتهم ليست إلا أوهاماً من صنعهم. ويقول يسوع المسيح: «والحقيقة تجعلكم أحراراً» .. ويدعو ماركس إلى أن على الإنسان أن يقضي على الأوهام ليخلق الظروف التي تجعل الأوهام غير ضرورية. ويقوم مفهوم فرويد عن «معرفة الذات» على فكرة القضاء على الأوهام والتبريرات ليصبح الإنسان واعيا بالحقيقة اللا أسطورية ... «.[38]

ويصل بنا فروم عبر شطحاته الفكرية المتعددة إلى نتيجة أظن أنها مرضية برغم كل شيء، إذ يقرر أن مشكلة الدين ليست هي مشكلة الإله بقدر ما هي مشكلة الإنسان. فليست الصيغ والرموز الدينية سوى محاولات للتعبير عن أشكال متنوعة من الخبرة الإنسانية. وما يعنينا هو طبيعة هذه الخبرات، أما نسق الرموز، فهو فقط المفتاح Cue الذي من خلاله نحلل تلك الخبرة لنستكشف الوضع الإنساني الذي يكمن وراءها.[39]

ويذكر فروم أن معظم المناقشات التي اهتمت بالدين منذ عصر التنوير لم تكترث لتلك الخبرة الدينية الإنسانية وركزت اهتمامها فقط إما على تأكيد الاعتقاد في الإله أو إنكار وجوده، وبالطبع فإن المؤمنين يقرون بوجود إله في حين ينكر وجوده غير المؤمنين أو الملاحدة الذين اتخذوا موقعا معادياً من الكنيسة.[40]

وينبهنا فروم إلى حقيقة أخرى هامة وهي أن كثيراً ممن يعلنون إيمانهم بالله هم في حقيقة الأمر عبدة أوثان أو بلا إيمان، على حين أن بعض الملحدين ممن يفنون حياتهم في خدمة الإنسانية وفي أعمال الإخاء والمحبة، هؤلاء قد يعكسون في مسلكهم اتجاها دينيا عميقا ربما يتسم بالإيمان.[41]

بقيت كلمة أخيرة في هذه الدراسة وهي:

أن فروم على قناعة بأنه لن يستطيع إنسان كائناً من كان أن يدعى امتلاك معرفة بالله تؤهله لأن ينتقد الآخرين، أو يكفرهم، أو يدينهم لاختلاف عقائدهم عن عقيدته، ولا يمكن بالمثل أن يدعى أن فكرته عن الله هي الفكرة الصحيحة بإطلاق.[42]

ورغم وعي فروم بهذه الحقيقة، إلا أنه كان يحاول دائما في كتاباته وأطروحاته أن يمزج بين الأفكار التي تنتمى للديانات الإبراهيمية وبين غيرها من الأفكار الأخرى التي تنتمي لديانات وفلسفات إنسانية. ويبدو أن فروم لم ينتبه بما فيه الكفاية إلى أن الديانات الإبراهيمية الثلاث تختلف فيما بينها اختلافا جذريا، وتتناقض تماما مع أي أفكار غريبة عنها أو لا تنتسب لنصها الديني، ولعل السبب في ذلك يعود إلى مركزية المقدس في كل من هذه الديانات ، وأعني بذلك النص الديني

Scanned by CamScanner

الذي يعتقد إنه كلمة الله، وبالتالي لا يجوز نقده أو الشك فيه أو حتى تأويله، ومن ثم فإن صاحب كل ديانة من هذه الديانات يعطي لنفسه الحق في التحدث باسم الإله، ويؤمن بأنه الأقرب إليه، ومن ثم فإنه يستحوذ على الحقيقة المطلقة أو المقدسة التي تجعل كل الحقائق الأخرى باطلة إن لم تكن مدنسة. ولا شك أن المطلقات أو القداسات لا يمكن أن تتحاور أو تتعايش معا أو مع غيرها، والدليل على ذلك ما تشهده منطقة الشرق الأوسط حالياً من صراعات وتناحرات طائفية ومذهبية مجنونة ومستعره يحركها الصراع الوهمي القائم على امتلاك المقدس ووهم الاصطفاء. ذلك الصراع الذي لن يكون له سوى نتيجة واحدة هي الموت المجاني لعشرات ومئات الآلاف من الأبرياء الذين يذبحون تحت راية المقدس وباسم الإله.

فضلاً عما تقدم نلاحظ أن الصورة التي قدمها فروم عن الإله اليهودي غارقة في النظرة الذاتية الضيقة وتكاد تكون انتقائية تماما، إذ تغاضى فروم عن الوجه الآخر للإله اليهودي، الوجه السادي المتعصب، وقدم لنا صورة منتقاة ومصفاة من كافة شوائب اليهودية. ويبدو أن مفهوم فروم عن الإله اليهودي يعاني من حالة اغتراب حادة.

على أية حال فإن هذه الملاحظات النقدية لا تقلل أبدا من قيمة إريك فروم كمفكر إنساني عظيم ظل طيلة حياته يدافع عن الحرية وعن حق الإنسان في الاستقلال إنه بحق كما قال عنه جون شار Shaar:

" إن فروم هو رجل القرن العشرين... الذي تحدث بحرارة عالية عن الحرية والعدالة والحب، والذي جعل أعظم قضاياه قوة الروح الإنسانية، لقد أراد بجدية أن يعلم البشر الطريق إلى الحرية بغير عزلة، والسبيل إلى العقل بغير مذهبية، وحب الذات بدون أنانية، والسلطة بغير قمع، والدين بلا لا هوتية ".[43]

1 Erich Fromm :, Rout ledge & Kegan Paul Ltd., London , 1967, pp 3536-.

FROMM, Erich. Man for himself: An inquiry into the psychology of ethics. Routledge, 2013.

2 Ibid : P33.

3 Ibid : P45.

4 FROMM, Erich. Man for himself: An inquiry into the psychology of ethics. Routledge, 2013.

1951, P.19.

5 Ibid: p19.

6 Ibid: P20.

Scanned by CamScanner

7 Sigmund Freud : Civilization and its Discontents, Norton & Company, New York. London, 1961, P.36.

8 Fromm : Psychoanalysis and Religion ,P21.

9 Fromm : The san society, Holet, Rinehart and Winston , New York , 1962 , pp 2223-.

10 Fromm : Man For Himself, P40.

11 إريك فروم : فن الحب ، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1980، ص ص 105-106.

12 FROMM, Erich. You Shall be as Godds: A Radical Interpretation of the Old Testament and Its Tradition. Holt, Rinehart and Winston, 1966., 1991, P6.

13 Ibid: P8.

14 Ibid: P10.

15 Ibid: P4.

16 Ibid: P5.

17 Ibid: P8.

18 Ibid: P9.

19 Fromm : Psychoanalysis and Religion, : P29.

FRANCIS, Roy G. Science and Prediction. The Midwest Sociologist, 1956, vol. 18, no 2, p. 7-12.

20 Ibid: P3234-.

21 Ibid: P43.

22 Ibid: P45.

23 Ibid: P45.

24 محمود رجب: الاغتراب، الجزء الأول، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1978، ص 128.

25 Fromm: Psychoanalysis and Religion, PP 5657-..

26 Ibid: P57.

27 FEUERBACH, Ludwig. The essence of Christianity. Barnes & Noble Publishing, 1957, P14..

28 Ibid: P204.

29 FROMM, Erich. You shall be as gods: A radical interpretation of the Old Testament and its tradition. Open Road Media, 2013, P10.

30 Ibid: P10.

31 Ibid: P11.

Scanned by CamScanner

32 Ibid: P11.

33 إريك فروم: الإنسان بين الجوهر والمظهر "نملك أو نكون"، ترجمة سعد زهران سلسلة عالم المعرفة، العدد 140، أغسطس 1989، ص 63.

34 حسن حماد: ذهنية التكفير. الأصوليات الإسلامية والعنف المقدس، مصر العربية للنشر والتوزيع، 2014، ص 90.

35 Fromm : You Shall Be as Gods,: P1213-.

36 Ibid: P12.

37 Fromm : Man For Himself: P41.

38 إريك فروم : الإنسان يبين الجوهر والمظهر ، ص ص 60 61- .

39 Fromm : Psychoanalysis and religion,: P118.

40 Ibid: P119.

41 Ibid: P119.

42 Ibid: P122.

43 SCHAAR, John H. Escape from authority: The Perspectives of Erich Fromm. New York , 1961, P4.

Scanned by CamScanner